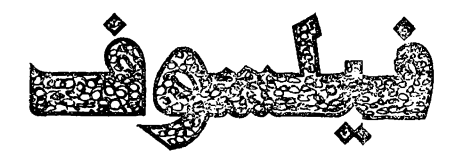


محمد حسن فقي
فيلسوف
٣٢
المكتبة الصغيرة

المكتبة الصغيرة

٣٢



محمد حسن فقي

الطبعـة الأولى

يوليـه ١٩٨٠ م

شعبان ١٤٠٠ هـ

اللوحات والغلاف من اعداد الفنان : بيار صادق

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة لا بد منها ..

حينما طلب الي أخي الأستاذ عبد العزيز الرفاعي ، أن أشترك في (المكتبة الصغيرة) بشيء من انتاجي .. بعثت اليه بمجموعة ، مما استطعت العثور عليه من مقالات كنت أنشرها فى الصحف المحلية تحت عنوان (فيلسوف) .. وان كنت لم أستطع أن أستخرج منها الا القليل ..

ولقد كنت بدأت فى كتابة هذه المقالات منذ أكثر من عشرين عاماً بجريدة (البلاد) وأدرتها على بعض الجوانب الحيوية التى تهتم بها كل أمة حية ، عريقة ونامية من سياسية واجتماعية وفكرية وأدبية وما الى هذه الجوانب التى لا بد لها من الحوار بين أرباب الأقلام ليمهدوا السبيل لحياة أفضل ولن يتأتّى الوصول الى هذه الحياة المثلى بقدر ما يستطيع البشر أن يصلوا اليه الا بمثل هذا الحوار الحر الصريح ..

ومنذ سنوات قلائل ، طلب منى الكثيرون من أصدقائي ، وقراء هذه المقالات الأقدمين ـ طلبوا اليّ بالحاح ، أن أعاود

كتابتها ، فاستجبت لرغباتهم وعاودت كتابتها لعلى أن أسهم بجهد ضئيل في خدمة أدبنا الحديث وأرجو أن أكون قد وُفّقت في هذا بقدر ما يستطيع جهدى الأدبى المتواضع أن يصل اليه .. فلئن كان في نشر هذه المقالات ما يستحق اللوم والتنديد ، فانني أنا وحدى المسؤول عنه .. ولئن كان فيها غَيض من فيض أدبيّ لا يكاد يبلّ الغليل ؛ فان الفضل فيه بعد الله لأخى الأستاذ الرفاعي .. سدد الله خطاه وضاعف من عونه لخدمة الأدب والثقافة في بلادنا بما يقدمه اليها باستمرار من أياد بيض لا تنكر . والله من وراء القصد وهو الهادى الى سواء السبيل ؟

محمد حسن فقى

- ١ -

انقطع الشيخ عن مريديه حيناً من الدهر فانقطع عنهم بانقطاعه ذلك الفيض الغزير الذى كان يغمرهم به فى محاوراته معهم .. من علم وفلسفة .. وآداب وفن وما اليها مما تكتظ به عقول العباقرة وأحاسيسهم فتحملهم حملا لا قبل لهم بمقاومته على التنفيس عنهم بالافضاء والحوار وتقليب شئون الحياة على كافة وجوهها للاستنباط منها واستخلاص زبدتها ومعرفة الجيد من الردىء والنافع من الضار .

هكذا كان شأن الشيخ فهو بحر لا حدود له ولا قرار ، أو قل عنه انه محيط تتقاصر عن ادراك حدوده وأغواره النفوس والأبصار ، لم تكن له مؤلفات ولكن محاوراته لو انها سجلت ثم جمعت ثم طبعت فى أسفار لكان له منها العشرات التى

تمتع وتفيد ، وتسهم فى دفع عجلة الحضارة والتطوير دفعاً قوياً متمكنا ، وكان الشيخ يأبى هذا كل الاباء ويقف فى سبيل تحقيقه حين يفكر فيه مريدوه وحواريوه قائلا انها مجرد أفكار وخوالج لا تستحق كل هذا العناء وجدير بنا أن لا نصدع بها رؤوس القراء وأن نترك لهم ما يجدونه من فراغ ليقرأوا ما هو أعود عليهم بالمزيد من التثقيف والتنور ، ثم يستطرد الشيخ فيقول انها مجرد أحاديث عن الروح والفكر والضمير ..

ولعل عصرنا هذا وأبناءه لا يميلون اليه بعد أن استغرقتهم المادة وقعدت لهم بكل سبيل . وبالتالى لا يتمثلونها ولا يهضمونها . فما بالنا نفرض هذا عليهم فرضاً ونكرههم عليه اكراهاً .

ويحاوره مريدوه حواراً جاداً هادفاً فلا يزداد الا اصراراً على رأيه واستمساكاً به ، فيمنعهم أدبهم مع الشيخ واكبارهم له أن يتمادوا فى الجدل والحوار وهم يعرفون منه العناد الشديد فى الثبات على آرائه وعدم التزحزح عنها قيد شعرة . وهو فى

هذا الثبات كالطود الشامخ قوة وصلابة واعتداداً بالرأي واقناعاً به حتى ليوشك مريدوه أن يظنوا بأنفسهم الخطأ أمام حججه الدامغة .

ولعل الشيخ فى زمنننا الحديث هذا أشبه بسقراط الحكيم زعيم فلاسفة الاغريق القدامى فلقد خلف تلاميذه أسفاراً من الحكمة مشعة وما تزال تحتفظ باشعاعها الى يومنا .. وما تزال تدرس فى الجامعات الحديثة ، فيجد الناس فيها متعة وطرافة وعمقاً ونضجاً ، وما زالوا يفيدون منها كما يفيد السارى فى الظلماء بنبراس متوهج .. أما سقراط الرأس والزعيم ، فانه لم يخلف مؤلفات مكتوبة ولكنه خلف أجيالا من الحكمة والفلسفة فى نفوس وكتب أتباعه منذ عشرات القرون حتى اليوم .. يدينون له بالفضل ويعترفون له بالسبق فكأنهم التلال المحيطة بالجبل الأشم .

كان انقطاع الشيخ عن مريديه لمرض ألمّ به فأقعده عن البحث والحوار وان لم يقعد عقله الفذ عن التأمل والتفكير واكترب أولئك المريدون لمرض

الشيخ اكتراباً حازباً ، وخافوا عليه خوفا مذهلا، الا أن الشـيخ كان أثبتهم جنانا وأصلبهم عوداً فكان هو المستخف بأوجاعه وكان يقـول لهم : انه مجرد عارض بسيط لا خطر فيه ولا خشية منه فما بالكم مكتئبين ولهذا العارض ـ ككل ما يلم بنا فى حياتنا من سوء ـ من النفع بقدر ما فيه من الضرر .

انه ليحملنى أكثر مما تحملنى الصحة السابغة على مزيد من التـأمل والتفـكير والبحث والتقصى فأجد فى هذا العزاء والسلوى ، بل لقد أجـد فيه الغبطـة والارتيـاح .. فما يقـوى المريدون على الحجاج وما يملـكون الا التسليم أمام منطق الشيخ المتسلط الذى لا يقاوم .

وجاء يوم تمالك الشيخ فيه قواه واسترد صحته بعـد فـترة استجمام كانت حافلة بالتأمل العميق والتسليم المذعن للقضاء فقد كان الشيخ يرى ان من الحكمة هذا الاذعان المستسلم أمام مشـيئة القـوة العليا المسيطرة على هذا الكون بكل ما يدب فيه من أحياء وما ينبث فيه من كائنات . وكان يرى ان هذه

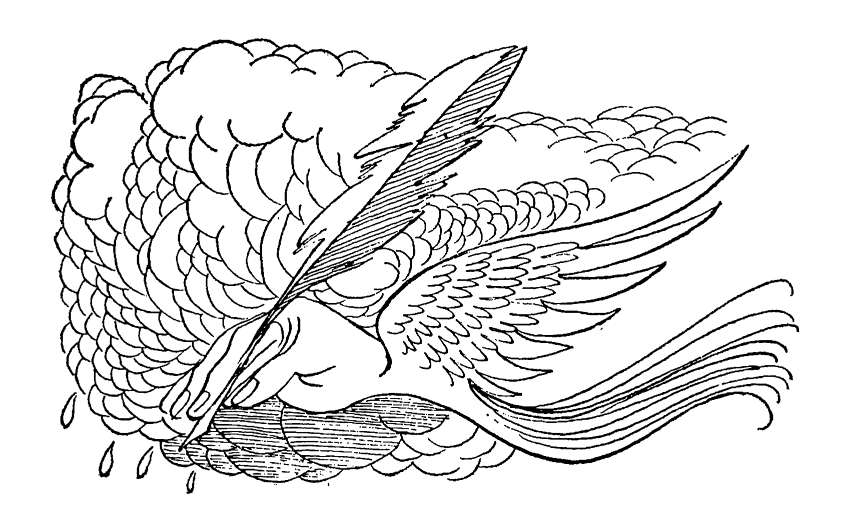
المشيئة العليا انما تمتحننا بما تصيبنا به من محن وارزاء لنخــرج منهــا ونحن أصلب عوداً وأقــوى ارادة وأعمق ايماناً .. ففي حرمانها عطاء ما ينبغي لنا أن نتجاهله أو نجحده بحال .

واغتبط المريدون اغتباطاً شديداً بعودة الشيخ الى حلقته وبتحلقهم حوله كما تتحلق الهالة حــول القمر فيفيض عليها وعلى الناس من اشعاعه ما ينير أمامهم السبيل .. كان للشيخ فى نفوســهم منزلة الاعجاب والتقديس . وكان هو أهلا لما هو فوق ذلك قولا وعملا . فلقد كان شديد الزهد فى الدنيا .. شديد المقت للحطام ولا سيما حينما يأتى من روافد غير مشروعة فكان لا يرى مجداً الا فى العالم العامل وفى الخُلق الرفيع .. وفى الايثــار والتضحية .. وكان عاشقاً للخير والجمــال متغنياً بهما فى السر والعلن . وكان سخي اليد على املاق فهو يجود بما يستطيع وكأنه يأخذ ولا يعطى فتراه متهللا بالبذل يحس منه بلذة وامتاع ويرى للأخذ منه منة عليــه

لا له . فكان حب مريديه له قائماً على أسس وطيدة لا تزعزعها الأحداث . .

ومع علم الشيخ الذى لا يجارى فقد كان شديد التواضع شديد الحيـاء . فهو يجرد نفسه من كل موهبة وعلم وينسبهما الى السوى فتحس منه وهو ينسبهما الى السوى بحرارة الصدق والاخلاص فيما يقول ، وحمادى القول فيه انه كان مثالا رائعاً للرجولة والانسانية . وللعلم والخلق . فلا عجب حين يحبه مريدوه كل الحب ويكبرونه كل الاكبار ويجلسون اليه فى أدب وسكينة .

اذن فلقد عاد شيخنا سيرته الأولى فكان لهذه العودة صدى عميق فى نفوس تلاميذه الكثر ، وكان بين هؤلاء تلميذ موهوب شديد الذكاء حتى ليوشك أن يكون أحد النوابغ على حداثة سن وطيب احدوثة ، فكان الشيخ يتنبأ له بمستقبل مضىء مدو ويحبوه من عطفه وحدبه ما تستحق مواهبه ومثابرته ولقانته . وكان لداته يرون هذا من الشيخ ومن



الزميل فلا يعجبون لما لا يستدعى العجب . فالذكاء يجتذب الذكاء ويرعاه ويحاول ـ اذا ما كان على مثل ذكاء الشيخ ـ أن يجعل منه خليفة له اذا ما ارتحل عن هذه الحياة الى الحياة الأرحب والأخلد وهذه هى سنة الحياة لا محيد عنها ولا مهرب منها للنفوس الواعية والعقول الحصيفة .. وبلغ من اعجاب الشيخ بمريده هذا أن يجعله يعيد من محاوراته لاخدانه حيناً ويفسر لهم ما غمض منها حيناً آخر فهو بالتعبير الحديث كالمعيد فى الجامعة.

ولقد كان انقطاع الشيخ عن الحوار بسبب مرضه حيناً من الدهر .. حافزاً لمريديه على ادخار العديد من الأسئلة العويصة فى شئون الكون والحياة والاحياء لشيخهم حتى اذا ما شافاه الله انهالوا بها عليه فكان ـ كما يعهدونه ـ غزير المعرفة مرهف الحس واسع العقل متعدد جوانب الثقافة فى رحابة وعمق .. كان يجيبهم ويفسر لهم ويحاورهم وكأنما هو السائل لا المسئول حتى

يصل بهم الى شواطىء الحقيقة التى يبحثون عنها باهتمام وولع شديدين .

قال مريد الشيخ الأثير لشيخه وهو يحاوره : لقد أحدث غيابك عنا فراغاً مضنياً وان لم تغب عنا بروحك وفكرك .. وان لم نغب عنك نحن مريديك بالمام من الزيارات الخفيفة التى لا تثقل على شيخنا المتوعك .. أما وقد شاء الله ان نعاود لقاءاتنا هذه الممتعة فننهل من العذب المستطاب حتى نبلّ الصدى الذى لا يروى فقد سنحت لى الفرصة لأنفِّس عن نفسى بسؤال أثقل عليها ولم تجد الى الجواب السديد عليه من سبيل . ولقد أرجأته راغماً الى لقائنا هذا . وما يزال يلح علي الحاحاً شديداً وما زلت أطاوله حتى لقيناكفهل لشيخى أن يمتعنى واخوانى بجواب عليه ؟! قال له شيخه وهو ينعم النظر اليه حتى ليكاد يصل الى أغوار نفسه المتحجبة فيعرف السؤال قبل أن ينقله اليه السائل .. ثم ينعم النظر اليه كرة أخرى فيرى من مخائل النجابة والرجحان ما يثلج صدره بمريده الأثير .. قال

له : فانني لمصغ اليك بسمعي وبجوارحي فهات سؤالك يا بني فلعل الله أن يفتح علي بجواب رشيد عليه .. قال: فانني ليعتلج بصدري منذ حين سؤال عنيد عتيد .. عن الخير والشر وعن الحق والباطل . وعن العقل والحس وعن الجمال في شتى صوره وهياكله . وعن السعادة والفن فأوفق حيناً وأخفق أحياناً . ثم أعود فأرجع على عقلي القاصر باللائمة ان لم يستطع أن يسلط مصباحه على هذه المعاني فيجلوها لبصيرتي ولبصري جلاء أطمئن اليه .. ثم عدت فقلت لعقلي : أيها العاجز صبراً فانني لشاك الى شيخنا ما لقيته منك من اعياء وكلال .. ومن عجز وتقصير .. وانني لعارض عليه سؤالي هذا ليضعك في مكان تشرف منه على الحقائق من قريب .. وليجلو هذا الصدأ الذي يحجب عنك رؤيتها فلا تستطيع الا التأرجح بين حق وباطل لا تستقر منه على قرار .

قال له الشيخ : أفتدري يا بني ان عقلك هذا طُلَعَة ما يستريح حتى تتفتح له المغاليق .. وان

نفسك قلقة ما تطمئن حتى تسبر أغوار الحقائق وتصل الى لبابها بعد أن تنضو عنها القشور ..

واننى لمعجب بهما أشد اعجاب وواثق انهما لن يريحاك أبداً من هذا التطلع والقلق المقدسين فبارك الله لك فيهما وأسبغ عليك وعلى أخوتك من آلائه ما تصلون به الى ما تصبو اليه عقول الحكماء مما يمكن أن يصل اليه البشر بما وهب الله لهم من فضله .. أما الكمال المطلق فهو له سبحانه وحده ولن يخطر باخلادنا قط ان نحاوله والا كنا من الحماقة بمكان .

فأما الخير ـ يا بني ـ فهو ان تروض نفسك على انتهاج أقوم السبل وان تكن أوعرها وأكثرها رهبة ومشقة .. انك بذلك ـ ان استطعته ـ وهذا ليس بالقليل تحسن الى نفسك أوفى احسان كما تحسن الى الحياة والاحياء بنفس هذا المقدار الطيب انك به ستتقبل الأذى والاساءة والعقوق وكل ما يتحدى ويجرح . تستقبله بصدر رحب ونفس

مصطبرة ما دامت كرامتــك بمنــأى عن التحــدى والتجريح فلن يقبل المساس بها الا حقير .

وأما الشر فهو أن تسلك الخط المضاد وهو أهون الخطين وان يكن دنيئاً .. ان الناس ــ يا بني ــ وان دلت مظاهر الكثيرين منهم على التحرش والاستبداد ومحاولة القهر والاضطهاد .. فانها مجرد مظاهــر لن تلبث أن تتحــول الى النقيض بشيء من الترفق والاناة .. ان في كل نفس ــ مهما كانت شريرة ــ جانباً مضيئاً ينبض بالخير ويجنح الى السلام ومن واجبنــا نحن أن نحــاول التسلل الى هذا الجــانب الخير ، وان نستميله الينــا فلا يلبث أن يســتجيب ولا تلبث العداوة ان تنقلب الى صداقة والنفور الى ألفة .. وجل الله فى علاه حينما يضع لنا القانون السماوى الحــكيم ، لكي نأخذ به فلا نضل السبيل ولا نقع فى الأخطاء ولا تجرفنــا المــآسى : (ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينــك وبينــه عــداوة كأنه ولي حميم) .

أرأيت ــ يا بني ــ الى هذه البلاغة المعجزة وهذا

الاعجاز البليغ . لو اننا أخذنا بهذا القانون الالهي لصلحت أمورنا واستقامت طرائقنا ، وكثرت صداقاتنا وتلاشت عداواتنا ورفرف السلام والحب علينا بجناحيهما الحانيين فأظلانا من الهجير وأقالانا من اللدد والخصام .

وأما الحق فهو ما اطمأن اليه ضميرك بعد بحث وتدقيق . ان الضمير المؤمن – يا بني – لن يهدى الا للحق . فايمانه بمثابة النور الهادى الى الصراط المستقيم .

وهذا الاحتكام الى الضمير والركون الى ما يصدره من حكم هو فيما لم يصدر به تشريع سماوى نؤمن به ، ونذعن له ونسلم اليه حتى وان لم تستبن لنا الحكمة فيه كل استبانة .

فمن أصدق من الله حكماً ؟! ومن أصدق من رسوله بلاغاً وتبياناً ؟! ومن أكرم نهجا من أصحابه النجوم الهادية بأيها نقتدى نهتدى ؟!

ان هذا التراث الاسلامي الخالد – يا بني – لهو

كنز الكنوز ونهاية الارب وغاية المأمول ، وما يتجاهله أو يحيد عنه الا جاهل مسكين أو أحمق مغرور أو مكابر قد ختم الله على قلبه وأضله على علم .

وأما الباطل فهو ما استنكرته الشرائع السماوية ، وأبته التقاليد الكريمة ، ورفضته الضمائر القويمة فهو والحق على طرفي نقيض لن يلتقيا قط ولن يركنا الى الراحة حتىيقضي أحدهما على الآخر . فان انتصر الحق ـ وهو غالباً ما ينتصر ـ ساد الأمن وعم الرخاء واستتب السلام ودرجت النفوس فى مدارج العز والكرامة .. أما ان انتصر الباطل فويل للناس من المنتصرين .. ويل لهم مما سيكابدون ويعانون .. ان الباطل يا بني هو كالهرة التى تأكل بنيها أو كالنار التى تأكل بعضها ان لم تجد ما تأكله كما يقولون .. ان القوي فى ظلاله الرهيبة سيستبد بالضعيف وسيستغله ويضطهره كل اضطهاد دون رحمة . ولن يدوم هذا له فان الضعيف ـ فى ظلال العسف

والهوان ـ سينتهز الفرصة حينما تسنحله فيعصف بالقوي عصفاً شديداً يزلزل كيانه ثم يذروه ذرواً فى مهاب الرياح .

انه لم يرحمه فهو ليس جديراً بالرحمة منه . هذا هو ناموس الحياة وقانونها العتيد . ومتى قامت الحياة على قوة مستبدة وضعف مهين ثم على ضعف يستشرى بالعسف والهوان وينقلب من ضعف الى قوة ضارية تعصف بمضطهديه . فانها يومئذ تكون حياة غاب متوحش متواثب .. مظلم رهيب لا حياة حضارة تحكمها قوانينها وأخلاقها وتنبتفى تربتها الطيبة وتحت ظلالها الوارفة المعايشة المتعاونة المتحابة العاملة على خير الفرد والمجتمع على السواء وشتان ما بين الحياتين وما بين المنهجين .

بقي يا بني سؤالك عن العقل والحس والجمال فأما العقل فهو هذا النبراس الذى ميز الله به البشر على من سواهم من مخلوقاته وهو شىء معجز محير احتار العلماء والفلاسفة فى وصفه كما اختلفوا فى مقره من هذا الهيكل . وان يكن

أكثرهم يميــل الى أنه يثــوى فى تلافيف المخ .. وحينمــا حاولوا أن يبحثــوا ويحللوا هذه المضغة الصغيرة الثاوية فى رؤوس البشرية خــرجوا من محاولاتهم العديدة بالمذهل الذى يتفوق على الخيال فى أعلى وأرحب مسارحه .. رأوا فيه العجب العجاب رأوا فيه قــدرة الخــالق العظيم فوقفــوا أمامهــا خاشــعين مؤمنــين مستيقنين بأن هذه الأعجــوبة الخارقة ليست ولن تكون من صنع البشر أو من فعل قانون النشوء والارتقاء الذى ابتدعه (داروين) ثم فنده من جاء بعده من الفلاسفة والعلماء . وكان هذا منهم مصادقة لقوله سبحانه فى كتابه الحكيم : (سنريهم آياتنــا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق) .

على ان المخ وحده ليس هو المعجزة الوحيدة فى هذا الكائن البشري فان هيكله هذا ليحتوى على ألوف المعجزات المذهلة المحيرة ، فالسمع والبصر والفؤاد والشم والذوق واللمس كل أولئك مما يدل دلالة قاطعة على قدرة الخالق العظيم ولن يسع البــاحث

والمحلل والدارس ـ لن يسعهم جميعاً الا الايمـان المطلق بالله وبعجائب صنعه .

ان العقـل يا بني قـد تمخض ـ بقـدرة من خالقه ـ عن جنين هو العلم بكل طرائقه ومناحيـه ومناهجه وأساليبه .. فالعلم وليد العقل ولا ريب ولقـد تكون الفلسفة توأماً له لولا انني أرى ان للخيال نصيباً في ميلادها وتكوينها . فهي مزاج من علم وخيال وان كان حظ العلم فيها أوفر . وكل ما نراه اليوم من عجائب العـلم تطلعـاً ودراسـة ورؤية وتحقيقاً هو من ثمرات هذا العقل العجيب في تركيبـه وتكوينـه .. وكل ما سيستجد عـلى حضارتنا هذه من منجزات علميـة باهـرة هو من ثمراته ولا ريب .

على أن هناك فرقاً دقيقاً بين العلم والفلسفة ، فالعلم لا يعرف الا الواقع الماثل تحت بصره يكشف له عنه مجهره وتكشفه له آلاته ومعامله وتحاليله ودراسته .. أما الفلسفة فهي حين تتطلع الى الواقع لا تبرأ من الخيال .. وكم من نظرية علمية تحققت



ولكن بعد أن سبقتها نظرية فلسفية متأملة باحثة مستقصية مفكرة . مهدت لها السبيل وكانت لها بمثابة الصوى في الطريق تكشف عن معالمه وتنير مسالكه الى أن يفضي السارى به الى غايته المنشودة . فالعلم دراسة وافية تستعين بآلاتها العلمية وبعقولها الفذة حتى تصل بهما الى اكتشاف أو اختراع يشيدان أو يدمران اذا ما ضلت بهم السبل وأمسك بقيادهما الجبابرة العتاة الذين ينتشون بالسيطرة والاستعلاء ولو تمّا لهما على ركام من الأشلاء .

أما الفلسفة فانها تفكير دائب وتأمل مستمر يتمخض عن نظريات وآراء معمرة أو هادمة كما نرى فى كثير من الفلسفات القديمة والحديثة على السواء .. ولقد يأخذ العلم من الفلسفة ولقد تأخذ الفلسفة من العلم فكلاهما متمم للآخر . وكلاهما يقوم على الدراسة والتأمل والتفكير والتجارب . ولكن للأول معامله وأدواته وللثانية صوامعها ومجاليها .

وكاد الشيخ أن يختم حديثه لولا أن ومضت في عينيه ومضات خالبة تفيض رقة وحناناً وتزخر بالذكاء والعرفان فاستدرك وربّت على كتف مريده بوداعه وتلطف وقال له :

ـ كدنا أن ننسى الفن والجمال والسعادة يا بني، وللفن والجمال والسعادة حديث يطول فهل لنا فى شيء من الراحة نستجمع به شتات أفكارنا ثم نعود كرة أخرى الى الحديث فهو حديث يشوق وان طال ؟ وما أظن الا أننا جميعاً فى حاجة الى استجمام مريح بعد أن ثرثرنا طويلا فيما لعله لا يعدو التهريج الذى لا يستند الى منطق ولا برهان .

وتهيأ الشيخ للقيام فقام لقيامه مريدوه اجلالا لا يدفعهم اليه الا الحب والاعجاب ما تحدهما الحدود .

وكان هو جديراً بكل هذا بل بالمزيد منه .



- ٢ -

وأشرق صباح جديد على سعيد وشقي وصحيح وسريض ، أشرق علـى أشـتات من البشر مختلفى النوازع والميول متباينى الأفكار والمشاعر ، منهم من تبتسم له الدنيا فيبتسم بعد أن أنالته من آلائها الكثير الطيب ، ومنهم من تعبس له فيعبس لمتاعبه وآلامه ، فلن يقوى سعيد على أن يشعر بمشاعر الشقاء ، كذلك هو الشقي فلن يقوى على أن يشعر بمشاعر تناقض ماهو فيه من تعاسة ، الا أفراد قلائل من أولى العزم وهبهم الله قوة خارقة على الثبات والاصطبار فلا تهن عزائمهم أمام الشدائد والخطوب ولا ينهارون أمامها مهما قست وعنفت .

وأهَلَّ الشيخ على مريديه ، بطلعته تلك الوقور وبوجهه ذلك المتهلل ، فهبوا للقائه فرحين، وأخذ مقعده منهم ، وتجاذب معهم أطرافاً من

الحديث الذى يعنى بشؤون اليوم وأحوال النـــاس فيه ، الى أن توسم فى وجوههم الرغبة الملحة فى أن يأخذوا فى الحديث الشيق الجاد ، الذى بدأه الشيخ من أمسه ، وهم يرتقبون تمامه فى يومهم .

قال : تشقق الحديث بيننا يوم أمس وتشعب ، فأفدت منكم ، ولعلنى استطعت أن أقدم لكم بعض الفائدة فيما ثرثرت فيه من حديث ، له من الطول أكثر مما له من النفع .. كان الشيخ يقول هذا جاداً وصادقاً ، فما هو ممن ينطوون على زيف أو خداع ، أو ممن يتظاهـــرون بالتواضـــع الـــكاذب ، وهم لا يريدون من ورائه الا المزيد من الشهرة والمكانة ولغط المريدون لغطاً شـــديداً كانوا به يحتجـــون على كلام الشيخ هذا .. قالوا له : فاننا لنلتمس منك المزيد من هذه الثرثرة المستحبة ، فانها لذات متعة وجـــدوى ، قال : فاننى لأستعين الله فى اســـتئناف ما أخذنا فيه من حديث أذكر أننا وقفنا عنده على تعريفات للسعادة وللفن وللجمـــال ، قالوا : وانا لمنتظرون فهيا بنا اليه .

قال : أما السعادة فهى فى نظرى ، الشعور بنشوة من عمل عملناه ، أو قول قلناه فكان له أثر طيب فيما حولنا ومن حولنا ، ولقد تعجبون حينما اقول أو الشعور بنشوة قول أو عمل ، أساء وأثخن فاستراحت به النفس اللجوج .

ان الناس صنفان ، خير وشرير ، فأما الخيّر فانه يرتاح لقول وعمل الخير ، ويحس منه بغبطة وسكينة ، وأما الشرير فانه يرتاح لكل ما يضر ويؤذى السوى ، أو لكل ما يجر اليه المغانم والأمجاد ، ولو على ركام من الخطايا والموبقات .. ولقد اختلف الناس اختلافاً كبيراً فى تحديد معنى الجمال ، وحمادى القول فى هذا التحديد عندى ، ان السعادة الحقة هى فى عمل الخير وفى الفرحة التى يشاهدها عامله ، فى عيون ونفوس من عمله معهم ، ثم فى نفسه ، فهناك أناس مسخرون لفعل الخير ، يندفعون اليه بطباعهم السمحة ، وبالرغبة فى الجزاء الأوفى عند من وعد به سبحانه عباده الأكرمين .. ولقد تنقصهم كل أسباب السعادة من

صحة وحطام ومجد وشهرة ، وهم لا يبالون ، فحسبهم أنهم فعلوا خيراً فاستراحوا بفعله ، أما تلك الأسباب فهى أسباب للسعادة السطحية ، لا السعادة اللباب ، سعادة الضمير والوجدان ، وأما سعادة الشرير بفعل الشر تشفيا أو انتقاماً أو اندفاعاً اليه بحكم طبع شرير لا قبل لصاحبه بمقاومته ، الا أن يشاء الله ، فهى سعادة خادعة خداع السراب ، ولن تلبث أن تنقلب الى ندم مرير ينهش الروح ويدمى الفؤاد ، فقليل من الناس أولئك الذين يستمرون على فعل الشر واللذة به طوال حياتهم ، فلقد قلنا من قبل فى حديثنا الأول : ان فى كل قلب مظلم زاوية مضيئة ، وان يكن يغشيها الضباب ، ولا بد لهذه الزاوية أن تنقلب فى يوم من الأيام على ما يحيط بها من ظلام فتبدده ، أو ينقلب صاحبها الى شر مصير ، ويكون ممن كتب الله عليهم الشقاء والعياذ بوجهه الكريم من هذا .

أما الفن فهو زبدة ما فى حياتنا من خير وجمال، ومن رقة ووداعة ، ومن سمو وترفع ، ومن توجيه

للذات وللسوى ، ومن تكريم للانسانيــة جمعاء ، وهو بشتى ألوانه وصوره ، من أدب ورسم ونحت وموسيقى وما اليها ، بمثابة رحيق الحياة وخلاصتها، وأرقى أشكال التعبير عنها ، أليس هو الذى يتسرب الى أغوار النفوس ويقرأ خوالجها وأحاسيسها ، كما يقرأ الانسان فى كتاب مفتــوح ؟ ثم هو يشاركهـا بعدئذ فى آلامها وآمالها ومصالحهــا فتثمر هــذه المشاركة أينــع الثمرات وأشهاها .. كم للفن من أياد بيض على ساعات العسرة فى حيواتنــا ، وكم له من أياد بيض فى فتــح أعيننا على مجالى الخــير والحق والجمال .. كم أطرب وأنعش ، وكم واسى وعزى ، وكم شيد وبنى وكم ردع عن ظلم وأسهم في حروب مقدســة لا يخــرج منها الا ظافراً ، هو وحماته وأنصاره وكم أطفأ من نيران حروب مستعرة وقادها بيده الرقيقــة الى ظــلال الســلام والأمن والطمأنينة والرخاء والعدالة الاجتماعية ؟

ان للفن آثاره الكبيرة التى لا تنكر ، واذا كان العلم يستمد من العقل فان الفن يستمد من الحس

من الوجدان والضمير .. من الخيال المجنح الملهم ، وهو فى كثير من الأحيان يسبق العلم الى كشوف مذهلة لم يهتد اليها العلم الا على ضوء مصابيحه المتلألئة .. على اننى أرى ، ولعل هذا الرأي أن يكون خطأ ، ولعله أن يكون صواباً كما أؤمل أن يكون ، أرى فى كل أثر علمي لمحة من الفن ،كذلك هو الفن لا يبرء من مثل هاته اللمحات العلمية ، ان كل ملكاتنا يشارك بعضها البعض ويسهم معه فى صنع ما يصنع .. قد يكون هذا الاسهام جلياً واضحاً ، وقد يكون خفياً لا يحس الا بأعين نافذة الى لباب الأشياء وصميمها ، وما أشك ان هناك شعراء ورسامين ونحاتين وموسيقيين ، يقولون الشعر ويرسمون وينحتون ، بالفطرة المجردة ، بالموهبة الأصيلة ، والذوق الرفيع المصفى ، ومعظمهم من الرواد الأوائل ، الذين جاءوا فى بداية النهضات ، وبواكير الحضارات ، قبل أن تقوم العلوم وتنبثق الفلسفات وتنتشر الثقافات على سطح هذا الكوكب ، فجاءوا بالمعجب المطرب من

وحي الطبع الذى لم تشاركه الصناعة المرتكزة على عديد من الثقافات .

وما تزال لبعض هؤلاء الرواد آثار قائمة بيننا ، نعجب بها ، ونقدرها حق قدرها ، وتدرسها الجامعات والمعاهد المختصة ، والأفراد المتيمون بالفن فى كل عصوره ..

والشعر العربي الجاهلي خير مثال نضربه على ما نقول ، فان لبعضه مكان الصدارة الدائمة ومقعده فوق عوالى القمم ، وقل مثل ذلك عن الرسم والنحت وما اليهما من الفنون الجميلة فى اليونان والرومان حتى في أوربا قبل أن تشرق عليها شمس الحضارة هذا الاشراق وتنبث فيها المدارس والمعاهد والجامعات ، وما أريد أن أطيل فى ضرب الأمثلة خشية الملل ، ولكنى أضرب المثل بشكسبير ودانتى وغوته ورفائيل وميكائيل أنجلو وبيتهوفن وشوبان وموزارت ، وكثير ممن يدانيهم ان لم يكن على مثل مستواهم الرفيع ..

اذن فالفن موهبة قبل أن يكون ثقافة .. قد

تزخرفه الثقافة وتصقله وتفتح له آفاقاً جديدة ، ولكنها لن تستطيع بحال أن تخلقه فى نفس انسان وأما الجمال يا بني فهو آية من آيات الله الكبرى الذى نسبح ونقدس له حينما تجتذبنا اجتذاباً ، وتستحوذ على ألبابنا ومشاعرنا بروعتها وسحرها، ونعرف عن يقين وايمان انه لا يستطيع مثل هذا الابداع المعجز الا هو ، وهو يتجلى فى أروع مظاهره فى هذا الكائن البشري الذى يبهرنا أحياناً ، فنصعق ونقف أمامه باهتين مستسلمين مطيعين ، فلو انه أمرنا ونحن فى حالتنا هذه بما شاء ، لما استطعنا الا الامتثال ، ونمتثل ونحن راضون محبورون ، فلا غاية لنا الا ارضاءه وادخال السرور الى نفسه ، بما يشهده منا من طاعة وامتثال ، هذا في الجمال العاقل الآسر ، فهو يعرف مبلغ سلطانه على النفوس وتأثيره فيها ، فيستعلى ويستبد ، ويأمر فيطاع ، ويطلب فنسخو له بالنفيس ، ثم لا نترقب منه جزاء ولا شكورا ، وهو بدوره يأخذ ويرى أنه أسدى الى من أخذ منه

معروفاً ، وقدم له يداً ينبغى له أن يحمد عليها ، ويعترف بالفضل .

كم أدار الجمال من رأس حواء وأثملها فأطاحت برؤوس كثيرة من عليائها الى الحضيض ، وكم ظن الجمال أنه ذو ربيع دائم ، لا يتطرق اليه الخريف ، فلم يحسب حساباً للفلك ودورانه ، ثم لم يفطن الا بعد أن أدركه الخريف ، فصوّح من روضه الأنيق وأذبل من أزهاره الناضرة ، فاذا هو بلقع جفت غدرانه ، وهجرته بلابله ، وتيبست كرومه ونخيله، وتلاشت أشذاء براعمه وأزهاره ، ذلك هو الجمال الأحمق المغرور .

أما الجمال الذكى الحصيف ، فانه لبعد نظره ، ولمعرفته بدوران الأفلاك وتغير الأحوال ، أو لطيب خيمه ، لا يستبد ولا يستغل ، ولا يجحد ولا يتنكر ، وهو بذلك يتزود لمستقبله من حاضره ، فاذا وافاه يومه المحتوم ، وجد حوله القلوب العاطفة ، لا القلوب الدامية ، والنفوس المعترفة لا النفوس الناقمة ، فكان له من خريفه ربيع ، وعاش ما عاش

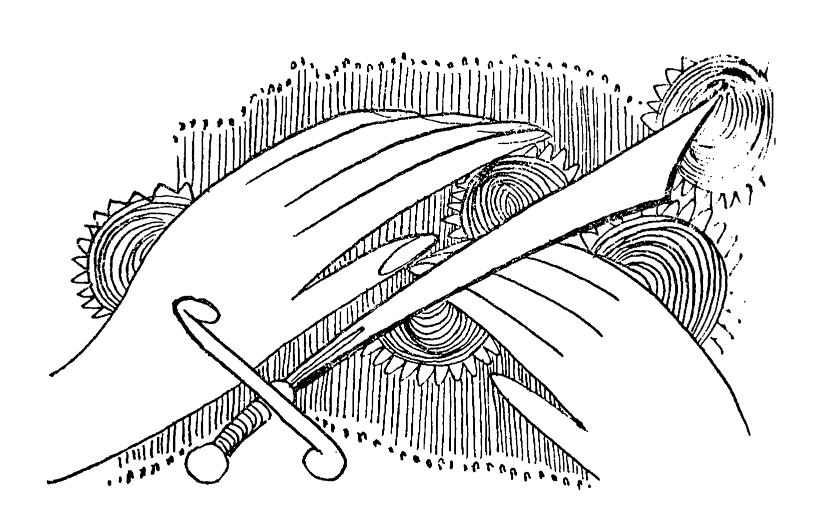
فى طمأنينة وحبور ، لا يعكرهما عليه الا الذكريات الآسية الحزينة ، التى توازن ما بين حاضرها وماضيها ، فتعرف أين الخسارة وأين الرجحان ، ولكنها تكتفى بالعزاء الجميل ، والمواساة الكريمة .

هذا تاريخ طويل يا بني للجمال البشري ، لو ان حواء أخذت منه العبر ، لما تفطرت الأكباد ، وتطايرت الأحقاد ، وأظلم اليوم والغد ، من تطاول ومخازى الأمس .

والعبرة لن تتأتى للحسان الا بالثقافة ، وقبل الثقافة بالخلق النبيل ، والعراقة المتحدرة من قديمها الى الجديد .. وكم لصرعى الأحداق والثغور والنحور من مآس ، لم تثمر الا التدهور ، والا الضغينة ، والرغبة الملحة فى الانتقام .

فليتق الغيد المصارع وليحذروا من عواقبها الوخيمة .

وصمت الشيخ قليلا ليستريح ، من عناء حديث طال وأجهد الفكر والحس ، لأنه خرج من أعماقها،



ثم التفت الى مريديه قائلا : لقد تحدثنا عن الجمال البشري حديثاً عاماً ، ولـكننا لم نحـدد مقاييسـه وموازينه بين الناس ، كل ما نستطيع قوله هو أن هناك مقاييس وموازين ، قد لا يختلف عليها الناس اختـلافاً كبيراً ، من حيث المظهر الجمالي المرئي ، ولكنهم يختلفون مثل هذا الاختلاف فيما عدا ذلك، فبينما أقول أنا مثلا : بأن هذا الجمال خارق وانه فى الذروة ، اذا بسواي ينكر علي هذا كل الانكار ، ويقـول بأنه جمـال ينقصـه الـكثير مـن المزايا والسمات ، فى حين أقول أنا مثلا عن جمال آخـر بانه عادي أو متوسط ، فأجد من يقـول كلا ، بل هو ساحر خـلاب ، وفى القمة التى لا يقتعدها الا القليلات .

اذن فالجمال انما هو انعكاس لنظـرة النـاظر اليه ، وجاذبية ممغنطة تنتقل بسرعة البرق الخاطف من القلب الى القلب ، فتؤثر فيه ، وتقيده اليـه ، وتلصـقه به ، فهـو مشغوف به ، منـافح عنه ، لا يستطيع عنه حولا ، ولا يبغى به بديلا .

والواقع الذى نعيشه يضرب لنا الأمثال المؤيدة، فكم من عظيم وقع في حبائل انثى عادية ، ليس فيها من مخائل الجمال الا لمحات باهتة ، فاغرم بها غراماً شديداً ، قيده اليها ، فهو من حبها فى شغل شاغل ، وكم من حسناء فاتنة ، احتوتها جدران بيت لم ير صاحبه بها ما يخلب ويفتن ، فأعرض عنها الى سواها ، ممن هن دونها جمالا وظرفاً وسحراً ، بما لا يقبل الموازنة والقياس .

وما أصدق المتنبى حين قال :

لا تعذل المشتاق فى أشواقه
حتى تكون حشاك فى احشائه ؟!

والشاعر الذى قال قبله وهو يهيم حباً بجارية سوداء لاشية فيها من جمال :

أحب لحبها السودان حتى
أحب لحبها سود الكلاب

وقانا الله ـ يا بني ـ من سوء النظر ، ورداءة الذوق ، وانحراف الطبع ، وخيبة المسعى .

ثم قال الشيخ : بقى علينا أن نتحدث عن الجمال في مجال الطبيعة الأخرى فى هذا الكون العجيب ، بمعجزاته وسدمه وشموسه وأقماره وكواكبه وسمائه وأرضه ، فان فى هذه المجالى ، ما بلغ الغاية من الجمال ، والروعة والاتقان ، وما بحثه العلم ، وتأملته الفلسفة ، وتغزل به الشعر ، فلم يبلغوا ببحوثهم وتأملاتهم وغزلهم عشر معشار ما ينبغى أن يرصد له ، وموجز القول فيه ، انه شيء يتعدى طاقة الخيال والحسبان البشري ، ذلك لأنه صنع اله متفرد .

تحبو العقول والمشاعر مهما عظمت وتسامت ، كما يحبو الأطفال حول شيء يرونه فيعجبهم ، ولكنهم لا يستطيعون النفاذ الى كنهه ، ولا التغلغل فى مساربه ، فيبكون حوله ، ويضحكون بسذاجة الصغار وبلاهتهم ، ثم لا يسعهم الا التفرق ، بعد أن عجزوا عن الادراك .

وكل هذه الكشوف العلمية التى بهرتنا ، ليست الا مجرد محاولات صبيانية بالنسبة لحقائق الكون

العظيم ومعجزاته ، هى لم تصل بعد الا الى قليل من القشور أراد الله لها أن تصل اليها ، أما اللباب ، فهو سر الأسرار ، ولغز الآلغاز ، على كل العقول والمشاعر والأخيلة ، وصدق الله العظيم حينما يقول فى محكم تنزيله : (وما أوتيتم من العلم الا قليلا).

ان العالم والفيلسوف والشاعر اذا لم يكونوا من المؤمنين من قبل ، ثم تكشف بصائرهم بعض حقائق الكون وأسراره ، لا يسعهم الا الايمان المطلق بقدرة الله وعظمته وجلاله ، أما أولئك الذين ما يزالون مصرين على الكفر والالحاد ،فانهم أنصاف علماء وفلاسفة وشعراء ، فان العلم الصحيح ، وكذلك هى الفلسفة والشعر ، لتهدى الى الحق بعد أن اتضح أمامها السبيل ، وأضاءته أنوار البصيرة المنصفة .

هل نتكلم بعد هذا الكلام الطويل الممل ــ يا بني ــ عن مجالى الجمال فى الروض الأغن ، وفى الخمائل الخضر ، وفى الأعشاب المتراقصة ، وفى الجداول المنسابة ، والغدران الفراتية ، وفى

شدو البلابل ، وانقضاض الصقور ، وتحليق النسور، وزقزقة الطيور ، ثم فى البحار المتلاطمة، وفى الأنهار العذبة ، وفى الجبال الشم ، وفى السهول المترامية ، والتلال المتناثرة ، فيما تحويه البحار من عوالم الأسماك ، والبرارى من عوالم الزواحف والوحوش والظباء والأرانب وما اليها من داجن ومتوحش وفريسة ومفترس .

ان الكلام ليطول بنا ويطول حتى لا نستطيع بعد أن نكفكف من غواربه ، فيغدو ثرثرة مسئمة لا تمتع ولا تفيد ، بل تحمل على النفور والانقباض، وما أريد أن نصل بحديثنا الى هذا الدرك المنحط ، فحسبنا اليوم ما أخذنا فيه من حديث منذ أن جلسنا مجلسنا هذا فى بواكر النهار حتى كاد أن يدركنا الأصيل .. فالى لقاء جديد فى حديث جديد أرجو أن لا نصل به الى حد التبرم والاضجار .

□ ■ □

- ٣ -

هاهو اليوم الثالث يهل على المريدين وقد عاد اليهم الشيخ . فعادت بعودته اليهم البراعم والأشذاء والأنداء ، فكأنهم فى روض حال بثماره وأزهاره وغدرانه وبلابله يجتلونه ويجتنونه فما يبخل عليهم ولا يضيق بهم وانما هو العطاء بعد العطاء يروى ويشبع .. وينعش ويطرب دون منّ أو امساك وانما هو التهلل المتواضع والبشر المجتذب . لا ملال منهما ولا كلال .. بل رغبة وتهافت .

وأهَلَّ عليهم الشيخ بطلعته الوقور ، ومحياه الباش ، فافترت ثغورهم عن ابتسامات الرضى والحبور فأقبلوا عليه يزفون .. وحياهم هو بتحية الاسلام تنشر السلام والمحبة بين الناس . فردوا تحيته أجمل رد وأحفله بالود والتبجيل .. ودار

الحديث بينهم هنيهة كما تدور الأحاديث فى أول اللقاء ثم استعدوا للبحث والحوار وتقدم مريد الى شيخه بسؤال عن الشعور بالمسؤولية وكيف يتأدى اليه الناس ؟ وكيف ينشأ ويترعرع فى الصدور ؟ وماهى مناهله الأولى التىمنها يستقى وبها يكتمل؟ وأطرق الشيخ برأسه الى الأرض ثواني معدودات ثم رفـع رأسـه وأجال بصره بين مريديه بحنـو واعجاب ثم قال لمريده : رعاك الله ـ يا بني ـ وأمدك بعون منه وتوفيـق انه لسؤال رحب منيف ليست الاجابة عليه مما يسهل ولـكننى بما أوتيتـه من العلم الزهيد سأحاول الاجابة عليه وأقول لكم هذا مبلغىمنالعلم : انّ الشعور بالمسؤولية قمة منقمم الخلق الانساني لن يفترعها الا انسان ممتاز وهو اذا تمكن من هذا الانسان جرى منه مجرى الدم.. وكان له رائداً ودليلا وضابطاً دقيقاً لتصرفاته فما يحيد عنه ولا ينحرف ولا يقبل فيه المسـاومة ولا الجدل انه يسير فى طريقه اللاحب ولا يبالى بلـوم ولا تهديد حتى ولو كانا ممن يملك أعنة النفـع والضرر وأسباب الرفع والخفض لقد كان أسلافنا

الغطاريف يتميزون بهذا الشعور النبيل وبه استغنوا بعد املاق .. وارتفعوا بعد انحطاط ففتحوا الممالك والأمصار ونشروا العقيدةالسمحة، ورفعوا راية العدالة والانصاف أينما حلوا وحيثما رفرفت راياتهم الشم .. ألم يقل المؤرخ الفرنسى الكبير غوستاف لوبون: ما عرفالتاريخ فاتحاً أرحم من العرب !

لقد كانوا من قبلمن الغلاظة بمكان ومن التفرق والتنازع بحيث لم يدر بخلد أحد أنهم سيكونون خير أمة أخرجت للناس ..

ان الايمان ـ يا بني ـ هو الرافد الأولوالأغزر للشعور بالمسؤولية فالانسان متى آمن ذلك الايمان الراسخ الذى تهديه السماءِ الى الأرض فانه يشعر حينئذ بمسؤولية ضخمة تجاه ايمانه . وتجاه نفسه . وتجاه مجتمعه ثم تجاه الانسانية برمتها.. وهذه المسؤولية هي التى تحكم تصرفاته وتتحكم فى ميوله ونوازعه فلا يقوى على مخالفتها بحال ..

ولقد يخالجنى أحياناً احساس قوي بأن

للدراسة شأناً كبيراً فى سلوك المرء وان لم تطرد القاعدة فتحفل بالشواذ كما هو الشأن فى ولد نوح نبي الله فلقد قال له ربه حينما خاطبه فيه مستشفعاً : « انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح » فهنا شذت القاعدة عن القياس ، وتحدر من صلب نبي مرسل مخلوق فاسد تاعس أبى عليه عمله الخاطىء أن يكون من الناجين مع أبيه ومن كان معه أما العامل القوي الملحوظ فى تربية هذا الشعور وتنميته .. فانه عامل البيت والمدرسة والبيئة الصالحة والمجتمع الرشيد .. الوالدان — ولا سيما الأم باعتبارها لصيقة الطفل فى طفولته وصباه ثم الأب .. فكلاهما يحمل قسطاً وافراً من مسؤولية التربية والتوجيه فى تلك السن المبكرة من حياته .. انه يومئذ أشبه بالشمع اللدن يكيفه صاحبه كيف شاء .. فعليهما أن يحرصا الحرص كله على رعاية أطفالهما وهم صغار قابلون للتكييف وللتوجيه وللأسوة الحسنة بما يرونه من أصولهم ماثلا بالعمل والقول لا بالقول وحده فهو لن يكفى بحال بل أنه ربما كان من أكبر عوامل الاعوجاج

فى نفوس الأطفال الذين يسمعون من آبائهم وأمهاتهم غير ما يرونه بأعينهم فتشتبه عليهم الأمور ثم يبؤون بشر المصائر بعد أن تدلهم عقولهم الصغيرة الى السخرية والتهكم بأولئك الآباء والأمهات الذين يقولون ما لا يفعلون فيقلدونهم وهم يتظاهرون بالطاعة والامتثال لنصائح ليس لها سند من حقيقة ولا واقع ولقد فطن العرب القدامى الى تأثير التربية البالغ فى نفوس الصبية الناشئين فقال شاعرهم :

وينشأ ناشىء الفتيان منا

على ما كان عوده أبوه

واننا لنشهد سلالات متعاقبة وهى تسير على نهج واحد مستقيم من دين وخلق وعلم وأدب وفن وكل هذا بتأثير التربية الحسنة والقدوة الطيبة والدم الزكي الذى لا يتحول الى دم فاسد الا فى القليل ..

ويأتى دور المدرسة بعد البيت .. فعلينا أن نختار لأبنائنا من المدارس ما هو جدير بتربية

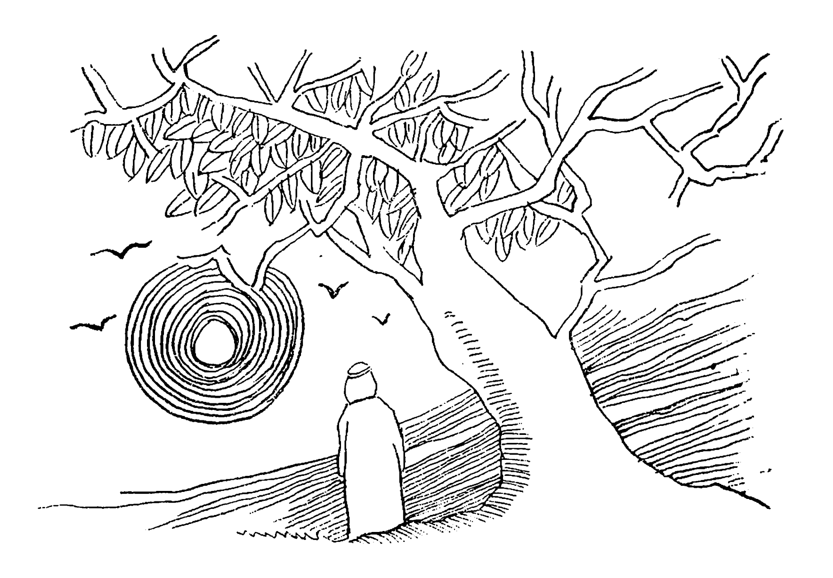
الجيل وصياغته أكرم صياغة .. مدارس تعنى أول ما تعنى بالدين وبالخلق وبالتقاليد ذوات الجلال والعراقة ثم بعد ذلك بالتعليم على أسس ومناهج سليمة لا تعقيد فيها ولا غموض .. ولا انحراف ولا التواء .. ويتخرج منها الطلاب وقد تزودوا بزادين من علم وخلق يشقان لهم الطرق الى المحامد والمأثرات .. والى عزة ورغادة وسماح مجتمعهم الكبير .

وللبيئة والمجتمع دور ليس بالهين ولا البسيط فلقد ينبت الفرد نباتاً حسناً فى بيته وأسرته وفى مدرسته وأترابه .. حتى اذا انغمس فى مجتمع فاسد أثر عليه هذا المجنمع قليلا قليلا حتى يلوى عنانه ويبدل طريقه فيجارى مجتمعه ذلك بعد أن يقاوم فتعييه المقاومة وينقلب رجحانه الى خسران..

على أن هذا لن يتم الا اذا خرج المرء من مجتمعه الأصيل الذى ترعرع فيه بين منزل كريم ومدرسة مثلى وأتراب صالحين الى مجتمع آخر لم يحظ بمثل ذلك المنزل ولا تلك المدرسة والأتراب ومن هنا جاء

تخوف المربين وتوجسهم من خروج الشاب قبل أن يصلب عوده وينضج عقله وتتغلغل فى دمائه المبادىء والمثل والتقاليد من مجتمعه الذى جبل من ترابه.. الى مجتمع غريب عنه وعن عقيدته ومبادئه ومثله وتقاليده لئلا يحدث له ذلك الانقلاب الرهيب .. وما أبعد نظرهم فيما ذهبوا اليه .. وما أشد حرصهم على فلذات أكبادنا من أن تميل بهم كفة الميزان فتضيع كل الجهود التى بذلت فى سبيل تقويمهم وتربيتهم على أفضل مثال .. وتذروها الرياح فيتحول الطيب الى خبيث .. والراشد الى غوي .. فلا نحصد الا الهشيم ..

هذه ـ يا بني ـ هى دعائم الشعور بالمسؤولية.. الوراثة ـ فى حيزها الضيق ـ والبيت والمدرسة والمجتمع . فهي التربية والبذور وهي هي الماء والشمس والهواء للشعور بالمسؤولية فى أصدق مدلولاتها وسكت الشيخ فى ارتقاب سؤال جديد من أحد مريديه الكثير .. بعد أن أبدى وجهة نظره فيما سئل عنه .. وبعد أن لمح ملامح القناعة



والرضى بها في وجوه مريديه .. وتحفز مريد آخر بسؤال كان يعتلج في نفســه ووجد أخـيراً فرصة لالقائه على الشيخ قال : هل لى أن أتقدم لشيخى بسؤال شد ما ألح علي الحــاحاً متواصلا لم أجـد سعـه معدى عن الافضاء به اليك ..؟ قال له الشيخ وقد أضاءت وجهه ابتسامة وديعة مطمئنة : هاته يا بني .. قال : فانني لأســأل عن الغنى والفقــر وأثرهما فى نفوس البشر ، وأيهما خير لهم ؟ لقــد ذقت مس الفقر فألفيته كمس السياط يدمىويلهب .. كمــا ذقت طعم الغنى أو قل بسطة عارضة من العيش خفت منهــا على نفسى البطر والاستعلاء .. ولقد يسعدنى أن أسمع من شيخى رأيه الوجيه فى كليهما .. وأتأر الشــيخ نظره اليــه ثم أجاله فى مريديه . وكان من بينهم اثنان ؛ أحدهما من سلالة عائلة على جانب كبير من الثراء ، والآخر متحــدر من أصلاب كلهــا على متربة واملاق ، لــكن الأول منهما كانت تعلوه كآبة متبرمة ، والثانى كان على مرح دائم مستخف ، وكان الشيخ يقول عن أولهما انه الغني الصابر، وعن الثانى أنه الفقير الشاكر،

نظر الشيخ الى اثنيهما وأحدّ نظره فأغضيا استحياء ولكن الشيخ أشار الى أولهما وقال لمريديه : ألا تعرفون أخاكم هذا ؟ قالوا : بلى .. قال : فانه قد ربى فى أحضان النعيم ، وتذوق رغادة العيش، وعاش ولم يتكبد عناء العمل المرهق ولا ذُل الحاجة ولكنه الى ذلك متبرم كئيت .. لماذا ؟! لأنه ذو نفس لا تعيش لنفسها فحسب ولكنها تعيش لسواها تتلفت الى هذا السوى فتجده فى نصب وفاقة يكاد أن يمتصا حياته امتصاصاً فلا يتركانها الا كالذبابة التى تطفئها النسمة العارضة ، أو هى كالثمالة التى يريقها الشارب بعد أن ارتوى . وقد رأى بها بعض الكدورة فعافها وأراقها .. انه ليتألم مرتين مرة لنفسه التى تؤذيها هذه الفوارق أذى شديداً . وأخرى للآخرين من البؤساء المكابدين ما يجدون من القادرين رحمة ولا عوناً ينشلانهم من القاع المظلم الذى استقروا فيه وهم يتطلعون بأبصارهم الى فوق فيجدون اليسار والنعماء ويجدون الصحة السابغة مؤزرة بالحول والطول . فيستجدى بعضهم تحت وطأة الحاجة المضنية أحاقت

بهم وبمن يعولون ، فأوردتهم موارد الذلة والهوان ولقـد يستجيب لهم القادرون . وقد لا يستجيبون فما يملكون الا الصبر والتسليم. أو الانطواء تحت الجناح المنبسط المتين .. ويترفـع البعض الآخـر صـوناً لـكرامته من التـكفف المهين .. ويصطبر اصطباراً قاسـياً على صروف الدهر ، ولو أوردته الحتوف ، هذا ما يعانيه أخـوكم هـذا . فأنا لهذا أنعته بالغني الصابر على احساسـه هـذا المرهـق المرمض . وأعـرف أنه يتذوق مرارة الحنظـل فى كأسه المترع بالرحيق الحلو . فهو من أولئك الذين لا يهنأون برغادة العيش الا اذا شـاركهم فيها من حولهم أو فانه ليصبو الى أن يكون مثلهم فيعـانى ما يعانون ويجد لهذه المعـاناة لذة وامتاعاً لأنهـا تحوطه بالحب وتضرب حوله نطاقاً يحميه من الحقد والحسـد وما يجـران اليـه من مآس على الحـاقد والحاسد وعلى من يمتدان اليه بشواظهما المحرق..

ثم أشار الشـيخ بسبابته الى مريده الآخر وقال : أما هـذا الفقير الشـاكر ، فاننى لأراه على عسره واملاقه أسعد حالا من أخيه على ثرائه العريض..

لقد ألهبه الفقر بسوطه فنظر حوله فاذا بأسرته كلها راضية قريرة العين . قد راضت نفسها على الرضا بحظها من الحياة ،فأكسبها هذا الرضا مناعة كمناعة التطعيم ضد الأمراض السارية ثم هو يجد الكثيرين من حوله فى حالة ان لم تكن كحالته فهى أسوأ بقليل أو أحسن بقليل أى انه يعيش فى وسط متقارب المستويات فليس هناك من حقدة ولا حسدة بل هناك تعاطف لعله يحمل على التعاون وتقوية الوشائج التى يوهنها التنافس فى المستويات الرفيعة ولقد يرهقه الشظف أحياناً فيفسح له من رقعة الأمل فى ارتقاب وضع أفضل ومجرد هذا الأمل يدعو الى النشوة والاغتباط وانتظار المجهول المترف.. ثم انه يعيش فى اطمئنان لا يشوبه قلق، وعلام القلق والدهر لا يستطيع أن يأخذ منه أكثر مما أخذ الا اذا أراد أن يدمر وهى حالة يتعرض لها الغني والفقير على السواء فيشتد خوف الغني فى حين لا يكون لدى الفقير ما يدعو الى الخشية منه بل لعله يرحب وهو فى عسره وضائقته بالخطوب التى

قد تريحه من الحياة المتربة القاسية .. ألم يقل المثل العامى الدارج « العريان فى القافلة آمن » ؟!

على أن هناك من يزعزع الفقـر من ايمـانه ، ويزلزل من ارادته فيجدف ويجأر بالشكوى الى غير راحم وما يزيد بهـذا الا أن يجعل من نفسه هزواً وسخرية والا أن يضاعف من بلواه بهذه الشـكوى المتردية وهذا التجديف المبيد .. وأحمد الله على أن صاحبنا وذويه ليسوا من هذا القبيل المتهالك والا كان الفقر نقمـة عليهم .. ولم يصح لنـا وصفه بالفقير الشاكر .

ومقطع القول فى الغنى والفقر أن لكل منهمـا مزاياه وأسواءه فالغني حينما يكون وسيلة الى الخير والاحسان حتى ولو أنه عاش فى رغد ونعماء فانه ولا ريب من نعم السماء التى يجب على من أصابته الشكران ان وفقه الله الى انتهـاج خيـر السـبل لاسـتغلال هـذا الغنى واسـتثماره فى تخفيف الكربات ، وتفريج الضائقات وانتشال الغرقى فى أوحال الحيـاة من الحمأة التى يتمرغون فيهـا ..

هذا الى جانب خصوبة عيشه مما أفاء الله عليه ، والفقر حينما يقابله من اصطفاه الله له .. بالصبر والامتثال والاذعان لقضاء الله الذى يقلب الأحوال على عباده فيصيبهم باليسر والعسر لينظر من عليائه اليهم كيف يقابلون هذا القضاء .. فانه قد يكون خيراً من الغني اذا كان هذا لم يقدر نعمة الله عليه حق قدرها ، فيسرف ويغتر ويتصرف تصرف الحمقى لا تصرف الراشدين ، هو خير منه ولا جدال الا اذا تشكى فأضاع من ثوابه وأدال من رجولته وكرامته بين الناس . فهما في هاتين الحالتين في الخسران سواء .

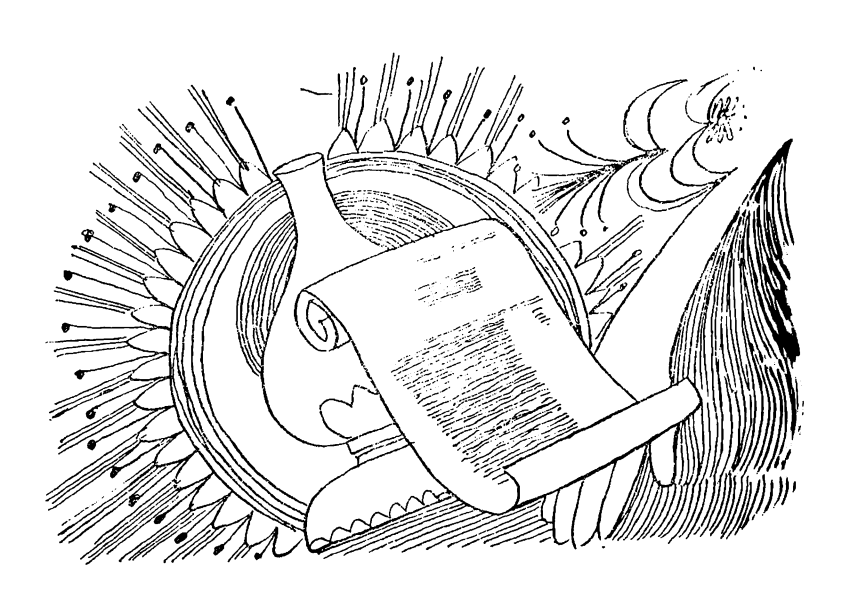
وسكت الشيخ قليلا ثم عاود حديثه فقال : هناك قول شائع بين الناس هو أن الغني الشاكر خير من الفقير الصابر .. وعللوا هذا التفضيل بأن الغني ابتلى بالغنى وهو امتحان عسير يكشف عن معدن المرء لتعرف نفاسته من خساسته .. فمن شكر الله على غناه .. ثم أعطى هذا الغنى حقه من البذل والاحسان فريضة ونفلا فهو جدير بالتقدير

من الناس وبالجزاء الأوفى من ربه .. أما من بخل على نفسه وعلى الناس ، وامتنع عن أداء حقوق الله المفروضة عليـــه فى ماله فهو خسيس لن يبـــوء الا بالخذلان وبالخزي فى داريه ، وأنا أستدرك على هذا فأقول : ان الغني الشاكر هو انسان جدير بالمحمدة والثناء ، وجدير بالاكبار والاجلال ، وجدير بعد هذا برضى الله عنه فلقـــد أعطى النعمة حقها ولم يبخل بما آتاه الله من فضله على شح النفس الغريزي وحرصها على الجمـــع والاكتناز من الحطام هذا .. ما أمكنهـــا وأنا ـ بدورى ـ أقـــول : ان الفقـــير الصابر كذلك قد أمتحن فاجتـــاز الامتحان بنجاح ان للفقـــر لذعة كلذعة الســـياط . ولقد يصيب بعض الناس بالحطة والحقارة فيهون فى سبيل لقمة العيش .. ويبذل ماء وجهه رخيصـــاً فى الاستجداء المستخذى بتملق لا يليق بالأحرار الذين يصطبرون على بأساء الحياة ويعيشون فى كرامة واعتزاز مهما أدقعوا وضاقت فى وجوههم السبل .. فاذا اصطبر المرء على مثل هـــذا الفقر المتـــرب فانه ـ كالغني

الشاكر جدير بالثنـاء والاطراء ولعله أجـدر منه بهما .

ولمس المريدون ما بذله الشيخ من جهد جاهـد لا يقوى عليه الا من كان فى شرخ الشباب .. وهو قد أوغل فى السن ، ودق عظمه وضعف بصره وان لم يخبُ نور عقله وضميره ، بل انه ليزداد بريقاً ولمعاناً كلما مرت به السنين .. وان لم يهن عزمه ويقل نشاطه فله منهما حظ الشباب القوي .. انه حيوية دائبة ونشاط متوثب غير أنهم ترفقـوا به والتمسوا منه أن ينفض مجلسهم هذا ليجتمـع من غـده فى مكانه المعـلوم فشـكر الشيخ لهم هذا ، وانفض المجلس فى ارتقاب يوم جديد .. وقالوا : لكل حادث حديث .

□ ■ □



- ٤ -

كان الشـــيخ يعتكف فى شـــهر رمضان المبارك للعبادة المتأملة فيما ذرأ الله لعباده .. وفى الكون ومعجزاته .. وفى البشر وهم من المعجزات الكبرى لبــارئهم وأكثرهم لا يعلمون .. وفى كل آية من ايات الله المنبثة فى كل جزء من أجزاء الوجود .. مرئية وغير مرئية .. وكان يضيف الى هذه العبادة انمــاطاً من محاوراته مع مريديه يغرس بهــا فى نفوســهم المزيد من حب الله واجـلاله والتفكير فى اياته وآلائه .. وكان يقسم أيام هذا الشهر ما بين المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف .. قال مرة لمريديه : اننى لأجد فى هذا الاعتكاف بهذين الحرمين المقدسين من المتعــة الروحية ما لا تعدلُها متعة فى هذه الحياة المندثرة .. وأجد الى جانب هذه المتعــة الحفيلة من الفوائد الجمة ما لا تعدله كنوز الأرض..

ليت الناس يستطيعون أن يتخلصوا من أغــلال

الجسد .. من هيولاهم الى عالم الروح الفسيح المشع بأنوار لا تمتّ الى أنوار الحياة الدنيا بصلة ذلك لأنها أنوار الهية تخترق الحواجز والحجب المادية الكثيفة حتى تصل الى قرارة الروح فتضيئها وتعمرها بالحق والخير والحب والجمال ..

وكان الشيخ وقد انتصف شهر رمضان .. يتهيأ لشد الرحال الى المسجد النبوي للصلاة فيه والاعتكاف والسلام على سيد الكائنات محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ..

وكان كثير من أتباعه المريدين يتبعه فى هذه الرحلة الدينية الميمونة الى تلك الرحاب .. وقليل منهم يتخلفون بفعل ظرف قاهر لا يمكنهم من هذه الرفقة الحبيبة .. يتخلفون متحسرين على فوات فرصة ما تعوّض .. ولكنهم يرجون من رفاقهم الذين أسعدهم الحظ باصطحاب الشيخ أن يوافوهم بخلاصات موجزة من أحاديث الشيخ وحواره فلا يخيب رفاقهم هذا الرجاء ، وقد ألفوه فى سنوات خلت وقاموا به خير قيام فقد علمهم الشيخ فيما

علم أن يكونوا لبعضهم اخواناً ، وان يترابطوا ويتكافلوا ترابط وتكافل الأسرة الواحدة تجد لزاماً عليها هذا حفاظاً على كيانها من التفكك .

وأراد – استجابة لرغبات مريديه الملحة – أن يجلس مجلسه الأخير معهم قبل أن يتوجه الى طيبة الطيبة .. كان الجو السائد فى تلك الجلسة واجماً كئيباً وان شابته غبطة لشيخهم أن حقق له أمنيته التى يرتقبها في كل عام .. فأما الراحلون فقد كانوا على ابتهاج غامر ، وأما المتخلفون فهم الذين وجموا واكتأبوا وودوا لو أن ظروفهم سمحت لهم كما سمحت لاخوانهم بمرافقة الشيخ الى هناك واكتساب مثوبة الزيارة الميمونة مع ملازمة شيخهم وعدم الافتراق عنه ولو ساعة من نهار . وأحس الشيخ منهم هذا فاغتبط وتألم فانه ليكنّ لمريديه من الحب والحنان ما يفوق حب الأب لأبنائه البررة ، ولكنه واساهم بتلطف ودعا لهم بخير ، وقال : ان هي الا أيام قلائل فى تلك الرحاب المقدسة ثم نعود بعدها اذا أذن الله لنا باللقاء .. ولسوف نذكركم

هناك فاذكرونا مثل ذكرانا لكم .. ولسوف نبتهل الى الله الكريم أن يمنّ علينا جميعاً بفضل منه وتوفيق .

قالوا له بلسان واحد .. من سيصحبه ومن سيتخلف ـ : يجزيك الله عنها أيها الشيخ الجليل بأكرم وأوفى جزائه فما لقينا منك منذ جلسنا اليك الا رحيق الود المصفى .. والا لباب العلم الخالص ، فكيف لا نأسى على فراقك الوشيك ؟! قال لهم : وانني لمقدر هذا لأبنائى ضارعاً الى الله فى علاه أن يجعل منهم أفذاذاً يملأون ما حولهم علماً وفضلا ويكونون القدوة المحتذاة لكل مقتد يتعشق الفضل والعلم المقرونين بالعمل فهل من سؤال لديكم قبل أن أقوم من مجلسى هذا الى البيت فأتهيأ للسفر ؟ قال له مريد منهم : فانى لأود أن أسأل شيخى عن القدرة والشهرة فلقد أعيانى حل لغزهما المحير ، فهناك قدرة فائقة ما يرتاب أحد فى أن صاحبها جدير باحتلال أرفع مكانة والاستحواذ على أبعد صيت .. ولكننا نجده برغم

هذا مغموراً حتى ليحسبه الجاهل خاملا وهو أبعد ما يكون عن الخمول .. فندهش لما نراه .. وتتضاعف دهشتنا حينما نرى الى جانبه آخر يحتل المكانة المرموقة ويتمتع بالصيت البعيد ويحظى بالشهرة المستفيضة وماهو من كل ذلك بمستحق فهو ضيق العطن ، سطحي الخبرة ، قليل العلم ولقد يكون الى جانب هذا سيء الخلق فظ الطباع .. وصاحبه منه على النقيض .. فما هو سر هذا .. وما تعليله عند شيخى ؟! قال له الشيخ وهو يرى مريديه يصيخون السمع اليه باهتمام عظيم ويرتقبون اجابته بشوق متلهف : انك ــ يا بني ــ لتضع يدك على سر من أسرار هذا الكون العجيب وكأنى بك تتمثل قول القائل :

كم عالم عالم أعيت مذاهبه

وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا !

غير أنى أود أن أقول لك : ان لله فى خلقه أسراراً قد تستغلق على أفهامنا القاصرة فما نفقه لها تفسيراً .. ولكن المؤمن المستسلم لقضاء الله وقدره

لن يستعصى عليه الحل ، فهو يعلم علم اليقين أنه ـ سبحانه ـ لا يسأل عما يفعل .. ويعلم الى جانب علمه هذا ان الله عادل الى أقصى حدود العدل . فما يفعل شيئاً عبثاً ..

ان القادر المغمور واجد ولا شك فئة خاصة من الناس تؤمن بقدرته وتعجب بها وتحلها واياه من نفوسها مكاناً علياً .. وما عليها من تلك الشهرة والمكانة .. ولا ذلك الصيت المدوي . فانها لتراها أشبه بالفقاقيع التى سرعان ما تتلاشى ولا تترك وراءها الا الفراغ . وهى لا تحفل بها ولا بأولئك المنخدعين بها من العامة .. وهى الى ذلك ـ تعرف أنه سيأتى اليوم الذى تأخذ فيه هذه القدرة حقها الأوفى من المكانة والاعتبار والذى تتوارى فيه تلك الأضواء الكاذبة التى غمرت من لا يستحقها وتتلاشى وتتقلص المكانة والتقدير وينفض الناس من حول مخلوق هو أشبه بالتمثال منه بالانسان الذى كرمه الله بالعقل والخلق والعلم .. وهناك احساس خفي يحس به كلاهما . فأما الأول فهو

يعرف أنه قد نال ما لا يستحق وانه اذا لم يبادر الى شكر الله على نعمائه بالسماح والبذل والتواضع وانكار الذات . ونسبة الحق الى أهله .. فان الله سينتزع منه هذه النعماء .. واذا لم ينتزعها منه ـ سبحانه ـ فى هذه الحياة الدنيا فانه سيحاسبه حساباً عليها يوم لقائه ..

وأما الثانى فانه يحس عكس احساس صاحبه ، فانه ليحس الطمأنينة والرضا عن النفس التى حباها الله ـ بهذه القدرة وان أحس بمرارة الغمط والحرمان

ألا ترى ـ يا بني ـ انه توزيع عادل من الله . هنا القدرة المطيقة . وهنا الشهرة البراقة .. هناك غمط وحرمان .. وهنا رفد واغداق .. ولو انك خيرت صاحب هذه القدرة ما بينها وبين هذه الشهرة والمكانة مع الضعف والفراغ .. لما تردد لحظة واحدة فى اختيار حالته على سوئها الظاهر .

ثق ـ يا بني ـ أن العاقبة للمتقين . وان القدرة ستلقى حظها ان عاجلا وان آجلا .. وحتى أنها اذا

لم تلق هذا الحق فان لها من قدرتها ما يعزيها عن الجهل المشين والعجز الفاضح يتستران بستار شفاف لا يلبث أن تخترقه أعين الناس فاذا بالتقدير ينقلب الى سخرية ، واذا بالمكانة تنحط فى نفوسهم الى أسفل درك ، واذا بصاحبهما بينهم كالدمية التى يتلهى بها الأطفال ثم يجعلونها بعد ذلك جذاذا ـ أما القدرة فلها الله ما أعز مكانها وأرفعه وما أكرم صاحبها وأعلاه .. « نحن قسمنا بينهم معيشتهم» . هذا ما يقوله لنا الله فيجب علينا أن نرضى كل الرضا بهذه القسمة العادلة ، وان نعرف أن مقابل كل عطاء حرماناً ، ومقابل كل حرمان عطاء . ولقد يكون الحرمان أحياناً أحفل بالعطاء وأجدى على المرء من كل اغداق مادي زائل ـ ذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد ..

وأجال الشيخ نظره بين مريديه ، فاذا بمريد يتحفز للكلام فشجعه عليه بايماءة باسمة .. قال المريد : انى لأرجو من شيخى أن يدخل السكينة الى نفسى بجواب شاف على سؤال يعتلج بها فما تهتدى

الى جواب يدخل عليها هذه السكينة .. قال الشيخ:
فما هو سؤالك ــ يا بني ــ قال : اننى لأسمع لغطاً
شديداً ونقاشاً محتدماً بين الكثير من الناس حول
الدين والعلم.. يقول بعضهم : ان العلم هو كل شيء
ما دام هو وحي العقل المتسلح بالمنطق والبرهان ،
ومن واجبنا ــ اذا كنا نحترم عقولنا ــ ان نهتدى
بهديه وأن نرفض ماعداه من عالم الغيبيات التى
لا يقوم عليها دليل .. ويقول البعض الآخر : ان
الدين هو كل شيء مادام هو من عند الله .. وان
العقل مهما اتسعت آفاقه عاجز أتم العجز هو
وجنينه العلم ، عن أن يقيم الدليل على كل شيء
مما يقع تحت حواسنا أو مما لا يقع .. مادام هو
خلقاً من خلق الله .. والا لتطاول الى مقام الالوهية
وحسب أنه قادر على كل شيء وهيهات .. ان الله
وحده هو الذى يحيط علمه بكل شيء وسواء استطاع
العلم البشري أن يفسر ويعلل أو لم يستطع ..
وما علينا نحن عباد الله المؤمنين الا أن نذعن لله
ونسلم له .. ولسوف يكشف لنا الايمان مالم
يستطع العلم أن يكشفه .. ان العلم يأتينا اليوم

بآية من آياته يهلل لهـا ويبشر بهـا ويضعها فى مرتبة اليقين الذى لا يتطرق اليـه الشك ثم يأتى الغد فاذا بهذه الآية تنهـار من قواعدها ويبرهن العلم نفسه على فسادها ويقيم آية أخرى مكانهـا ما تلبث هى الأخرى أن تتهدم على يد العلم نفسه ، وتتبدد كما يتبدد الدخان فى الهواء .

وصدق الله حين يقـول لنـا فى محكم تنزيله : « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

واستمر المريد فى حديثه فقال لشيخه : وانني لحـائر متخبط فى هـذه اللجج أود النجاة منهـا بالسكينة التى أرجوها والتى تطمئن اليها نفسى ، وليس كمثل شيخى من يتفضل علي بها ..

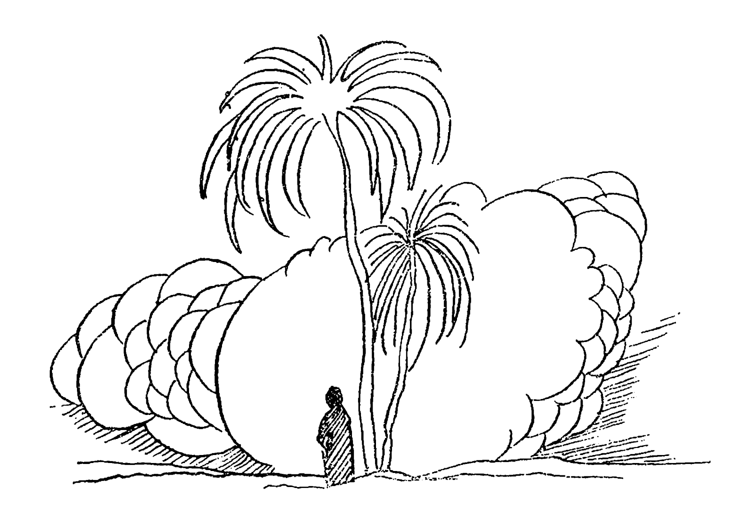
قال له الشيخ : لا ترع ـ يا بني ـ فما أعظـم الفارق بين الدين والعـلم . وانه لعظـيم عظـيم ـ فالدين من عند الله . والعـلم من صنع البشر ، وهو ينبع من العقل الذى هو من صنع الله واحدى آياته . فكيف يتسنى لنا ان نقارن بينهما ؟! لئن

نحن فعلنا ذلك فلقد افترينا على الحق افتراء كبيراً . ولقد ظلمنا أنفسنا ظلماً كثيراً ..

ان من يتجاسر على مثل هذه المقارنة فانه لغبي أحمق .. وهو ــ الى ذلك ــ جاحد كفور .. لقد قال أحد كبار الملاحدة وقد بهرته آيات الله .. قال : لو لم يكن لنا اله لوجب علينا أن نخلقه ــ فهذا الذى نشهده ــ بحواسنا هذه المحدودة الضعيفة فنقف أمامه خاشعين .. وهذا الكائن البشري الذى قد يدفعه غروره وبطره الى الكفر ، لو أنه تبصر فيما حوله وتبصر فى نفسه لعرف أن هناك قوة علوية هى التى ابتدعت هذا النظام المعجز وهذا الخلق الذى حير الألباب بما فى كل جارحة من جوارحه من آيات بينات : «وفى أنفسكم أفلا تبصرون» ؟!

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » . هذا ما يقوله القرآن لأولئك المساكين منددأ ، ومتحدياً . لقد تحداهم فى كل الأزمنة والأجيال بأن يخلقوا ذباباً ، وهو من أضعف مخلوقاته سبحانه .. ثم تحداهم بما هو أقل من الخلق

والابداع .. تحداهم بأن يستنقذوا ما يسلبهم الذباب ، فلم يستطيعوا أمام هذا التحدى حولا ولا طولا ، وأنىّ لهم أن يستطيعوا ، وهم خلق من خلق الله .. وكل علومهم وكشوفهم ومخترعاتهم ان هى الا برهان على وجوده وعلى عظمته .. وان هى الا قطرة تافهة من محيط عظيم عظيم لا يسبر غوره ولا يحد مداه .. ولئن كان للعلم من فضل فهو انه يدل ــ ان هو تعمق وتبصر ــ على الايمان ، والايمان يدل على الله . ولقد آمن به ــ سبحانه ــ كثير من العلماء المنصفين حينما بدت لهم آياته واضحة جلية فاستنارت بصائرهم بعد اظلام وقالوا آمنا به وقد كنا له منكرين .. كلمة واحدة أريد أن أقولها لهؤلاء البسطاء ، أو هؤلاء المكابرين ، هل الانسان هو الذى خلق نفسه أم ان له خالقاً ؟! وهل تستطيع سنة النشوء والارتقاء التى عنها يتحدثون وبها يفيضون وان هي الا اكذوبة كبرى وافتراء على الله ، هل تستطيع هذه السنة أن تجعل من القرد هذا الانسان المدرك المبدع ؟! أم أن الطبيعة التى يتزعمونها هى التى خلقتهم بادىء بدء ثم مازالت



بهم تطورهم حتى وصلت بهم الى هذا المستوى الرفيع ؟! وماهى هذه الطبيعة ؟ ما كنهها ؟ ما بدؤها وانتهاؤها ؟ ما مدى قدرتها وسيطرتها على هذا الكون كله ؟ انهم لا يحيرون جواباً على مثل هذه الأسئلة ولكنهم يكابرون ، أم يريدون أن يقولوا لنا انهم خلقوا من غير شيء كما قال لهم سبحانه ، أم هم الخالقون ، وخابوا وخسروا فلن يستطيعوا مثل هذا القول والا وصموا بالجنون والخسران المبين ، لو ان العقل ، لو ان العلم ، استطاعا أن يحيطا بكل شيء فى هذا الوجود ، وان يسيطرا عليه ويطوعانه لوصلا الى مرتبة الالوهية وهيهات .. اذن فالفارق بين الدين والعلم هو فارق جوهري لأن الأول من عند الله ، والثانى من عند الانسان ، والأول خالق قدير ، والثانى مخلوق عاجز . لقد أعطانا الله العقل لنميز به الرشد من الغي والخطأ من الصواب . فمن العبث بهذا العقل أن نجعله مطية للأوهام الخادعة ، وأن نظن به انه على كل شيء قدير .. هو رحمة بنا من عند الله .. فكيف نحيله الى نقمة علينا يخرجنا من

الايمان الى الكفر..ويشتط حتى يضع كيانه الحقير موضع خالقه ومانحه القدرة والنور ؟!

وأطرق المريدون برؤوسهم وهم يسمعون لشيخهم متدفقاً تدفق البحر بالأدلة الدامغة والبراهين الساطعة.. وما كانوا قط ، وهم تلامذته أن يشكوا لحظة واحدة فى أن الله هو خالق هذه الكائنات كلها وهو المسيطر عليها .. وهو القادر أن يبيدها ويأتى بخلق جديد سواها .. ولكنهم كانوا يريدون أن يصلوا الى الايمان الراسخ بالمنطق والبرهان كما وصلوا اليه بالبديهة والطبع .

وتهيأ الشيخ للقيام ، فقد آن له أن يأخذ الأهبة هو ومريدوه لرحلته هذه التى يتطلع ويتطلعون اليها بشغف ولهفة .. لولا أن مريداً التمسه بضع دقائق تكفى لسؤال وجواب وما كان الشيخ ليرد ملتمساً لأحد مريديه حتى ولو عاقه تحقيق هذا الملتمس قليلا عما كان يتهيأ له ويود لو أنه بادر اليه .. قال له : هات ما عندك ـ يا بني ـ ولعلك

أن تسرع به فلقد أصبحت ما أملك من أمر نفسى الا القليل وقد هاجنى الشوق للرحيل ..

قال المريد : فاننى أتوق الى أن أسمع من شيخى رأيه الحكيم فى قواعد الحكم الرشيد .. اننى منذ قرأت لأفلاطون مدينته الفاضلة .. ثم قرأت عن كرامة الحكم الاسلامي فى عصوره الأولى .. وما تلاها من عصور متفرقة يتمخض عنها الزمن بين فترة وأخرى فيرى العالم فيها أروع أشكال الحكم وأرشدها وأدعاها الى الرضا والاطمئنان والانضواء تحت لوائها حتى من أولئك الذين لا يدينون بدين الاسلام من أولى الذمة .. منذ قرأت كل هذا وأنا لا أكاد أثبت على رأي جازم في أيها أرشد وأمثل وان كنت أرى فى قواعد الحكم الاسلامي أقوى القواعد وأرسخها ،وأحفلها بالمكارم والمآثر ، قال له الشيخ ، وهو يستأنى فى كلامه وكأنه يختار كل لفظة تلفظها شفتاه : لقد أحسنت يا بني ، فيما أرتأيته فى قواعد الحكم الاسلامي ، فاطمأنت نفسك اليه ، ان قواعد الحكم

الرشيد لا تقــوم الا على أرض صلبة من المحبــة والوئام والتفاهم والشعور المشترك ما بين القمــة وقواعدها ، فالقمة هى بمثابة الرأس المفكرة تقوم على كيان متين فيكمل أحدهما الآخر ولا يستغنى عنــه بحال .. ولم يقم الحــكم الاسلامي فى أزهى عصوره الا على هــذه القواعــد التى ما حاول أن يزعزعها الا ظالم قد تنهار عليه فتودى به .. لم يقم الحكم الاسلامي قط على الارهاب ولا على الخوف ولا على الرياء والزلفى ، وانما هو محبــة ووئام وتفاهم وشعور مشترك كما أسلفت . وما شذ عن هذا الطريق الســوي الا من انحــرف عن أحــكام الشريعة الاسلامية وأراد استبدالها بقوانين وضعية مستوردة وارغام النــاس عليهــا ارغاماً ، فكانت عاقبته أسوأ عاقبة ولم يجن الناس له فى صدورهم الا الكراهية والمقت حتى ينقذهم الله منه ..

على اننا نحمد الله على اننا فى بلدنا هذا الأقدس نضرب الأمثال للنــاس بالتمسك بشريعة الاســلام وبقواعــده وقوانينه وقيمه ومثــله ومبــادئه

وتقاليده فيغبطنا الكثير منهم ممن لم يتمتعوا بمثل ما نحن فيه من رخاء وبلهنية عيش وسعادة وأمن واطمئنان وتلاحم وثيق ما بين القمة والقاعدة ، على أنهم يستمتعون عما قريب بهذا فانني لأبصر نور الاسلام يغزو الممالك والأمصار فيبدد الضباب والظلمات ولن يلبث هذا النور أن يعم العالم كله ان شاء الله .

ثم استوى الشيخ واقفاً فوقف مريدوه لوقوفه وانصرف راشداً بعد أن ودع المقيمين واصطحب رفاق الرحلة ●●●



(مطابع الروضة – جدة ت : ٢٧٩٢١–٣٦٧٤٩)



الكاتب بقلمه ..

ولدت بمكة المكرمة في أواخر شهر ذي القعدة عام ١٣٤٢هـ والتحرير يوم ١٧ من هذا
الشهر. هاجرت الأسرة كلها إلى جدة لسفر والدي رحمه الله إلى اندونيسيا. فأدخلوني
وأنا دون السادسة من عمري إلى الجميع لأحضر إلينا من مدارس فلاح جدة أو التحضيري لها. وتخرجت
منه إلى المدرسة واستمرت دراستي بها إلى نهاية السنة الثانية.. ولما عاد الوالد من رحلته عدنا إلى
مكة والتحقت بمدرسة الفلاح بها حتى تخرجت منها وعملت عاما واحدا أستاذا للأدب العربي والتاريخ
والجغرافيا. وكنت وأنا بالمدرسة أكتب بجريدة صوت الحجاز ككاتب ناشئ. ثم أسندت تحريرها
لفترة قصيرة انتقلت بعدها إلى العمل بوزارة المالية حتى أصبحت مديرا عاما لها. ثم انتقلت إلى
اندونيسيا سفيرا للمملكة في عهد المرحوم الملك سعود. والشهيد المرحوم الملك فيصل. وبعد فترة
هناك لأعمل بناء على أمر المغفور له الملك فيصل نائبا لرئيس ديوان المراقبة حيث أسست الذي شاركت
فيه. ثم استقلت بعد عدة سنوات لأتفرغ إلى الأعمال الخاصة وانتخبت كأول مدير عام لمؤسسة
البلاد ثم استقلت لأسباب صحية. ثم تفضل معالي الأخ حسن عبد الله آل الشيخ وزير التعليم العالي
والمشرف العام على المجلة العربية فرشحني لرئاسة تحرير المجلة والإشراف على مكاتبها بالمنطقة الغربية
هذه خلاصة موجزة لترجمة حياتي.. ولا يظهر منها أنها ترجمة عادية لشخص عادي.

مطابع الروضة ـ جدة